Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٢، صيف ١٤٣٦ هـ
صفحة ٣٦٧- ٣٨٦

أدب حافظ الشيرازي في ملحمة الحرافيش

حسين ميرزائي‌نيا[١]، فرشته أفضلي[٢]*، هاشم محمد هاشم الكومي[٣]

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة حكيم السبزواري

٢. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

٣. دكتوراه في الأدب الفارسي المقارن، جامعة أسيوط، مصر

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٦/٢٤ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٧/٢٨)

الملخّص

تعدّ رواية «ملحمة الحرافيش» من أهم روايات المرحلة الخامسة للروائي المصري «نجيب محفوظ»، وتتميز هذه الرواية بمعالجة ـ التي قد قدّمت جانباً من الحياة في مصر إبان العصر المملوكي ـ القضايا الإنسانية مثل الوجود والموت والشر والقدر في إطار العلاقة الغامضة والمتداخلة والشاملة للإنسان بنفسه وبالكون، وتضمنت رواية "ملحمة الحرافيش" ما كان شائعاً في العصر المملوكي من أناشيد دينية كانت تترنّم في التكايا والتي كانت معانيها المترنمة تختفي وراء ألفاظها الأعجمية ولا يفهمها عامة الناس أو الحرافيش، ولقد اتكأ نجيب محفوظ في توظيفه لهذه الظاهرة في روايته على غزليات الشاعر الإيراني القدير "حافظ الشيرازي"، بحيث تضمنت "ملحمة الحرافيش" ثلاثة عشر بيتاً من غزليات «حافظ الشيرازي» تم توظيفها في الحكايات العشرة للرواية. لقد طالع "نجيب محفوظ أشعار حافظ وأعجب بها وبفلسفتها، على الرغم من غموض بعض معانيها التي يغلب عليها الطابع الفلسفي والصوفي. وحاول توظيف هذا الشعر بما يحمله من تفاسير متعددة في روايته حتى تضيف لها أبعاداً دلالية وجمالية. فمن الطريف أن كاتباً شهيراً كنجيب محفوظ يتضمن شعراً مكان النثر في كتابته ويطرح ما في فكرته بلغة أخرى ولهذا يمثل الجانب العرفاني من الشعر الفارسي. إنه يريد أن يتكلم ما في فكرته بالرمز ويجعل تلك الأصوات غامضة على القارئ أو يريد خلق إبداع أدبي. ولقد لاحظنا أن "نجيب محفوظ" تأثر بشكل كبير بأفكار "حافظ الشيرازي" واستطاع ببراعة في توظيف بعض أبيات من غزليات التي تتوافق مع مضمون روايته والتي تحمل روح التصوف الذي يغلب على مضمون الرواية، ولقد وظف "نجيب محفوظ" الأبيات باللغة الفارسية بدون ترجمة حتى تكون غامضة على القارئ العربي وبذلك تساعد هذه الأبيات المبهمة في لحظات التفكير والتأمّل الذي يتناسب مع مضمون الرواية، كما أن "نجيب محفوظ" لم ينجح في بعض تناصاته لأبيات "حافظ الشيرازي" من إدراك المعنى الباطن للنص واكتفى بالمعنى الظاهر للأبيات.

الكلمات الرئيسة

جميل صدقي الزهاوي، ابوالقاسم اللاهوتي، الحرية والوطنية، ايران، العراق.

---

* الكاتب المسؤول

Email: Fereshtehafzali@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

«ينصرف اهتمام الأدب المقارن الحقيقي إلى متابعة مواطن التأثير والتأثر بين طرفي المقارنة اللذين ينتميان إلى أدبين مختلفين. وموضوع الأدب المقارن إذن هو مواطن التلاقي بين الآداب، النابعة من علاقات تاريخية بينها أو هو دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض» (السيد، ٢٠٠٦: ١٧). ولا يقتصر الأدب المقارن على دراسة الاستعارات الصريحة وانتقال الأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية للأشخاص من أدب إلى آخر، بل يشمل أيضاً دراسة نوع التأثير الذي اصطنع به الكاتب في لغته التي يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر. فمحور الأدب المقارن دائماً الأدب القومي في صلته بالآداب العالمية وامتداده بالتأثير فيها وإغنائها أو بالتأثر بها والغنى بسببها وللأدب المقارن إلى أهميته في جلاء نواحي الأصالة في الأدب القومي أهمية أخرى لا تقلّ عن تلك خطراً وهي التعمق في الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته في الأدب القومي والآداب العالمية.. (غنيمي هلال، دون تا: ٢).

وعليه نلحظ أن الأدب العربي قد استطاع أن يتسرّب إلى أعماق الأدب الفارسي، ومن ثم حدث التأثير والتأثر بين الأدبين يظهر ذلك في موضوعات أدبية متنوعة، وهذا ما يبرز في رواية "ملحمة الحرافيش" بحيث تأثر الروائي المصري "نجيب محفوظ" بالشاعر الإيراني"حافظ الشيرازي" وأفكاره ولعلّ هذا التأثير الجلي هو الذي دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع ودراسته، بحيث أشار نجيب محفوظ قائلا: "أعجبت بحافظ الشيرازي" (عمر، ٢٠٠٨).

«تمتلئ رواية ملحمة الحرافيش"حماسه عياران" (بالفارسية) بنفس ملحمي تسرد قصة حياة البشرية من المجهول وإلى المجهول تسير ويختار نجيب محفوظ إيقاع وتكثيف وإيحاء الصورة الشعرية وإيقاعها في سرد وقائع الأحداث ورسم نماذج الشخصيات. إنها صورة لا متناهية عن حارة مصرية تحدها معالم ذات رمز واضح، التكية والسور العتيق، رمز للغيب المجهول، للأصل واليقين والله. تنثال منها الأناشيد بلغة فارسية. عند الترجمة نجدها تعليقات ذات رنة صوفية عن ـ المأساة والملهاة ـ في حياة البشر» (أبوعوف، ٢٠٠٩: ١٣٩).

وما يلفت النظر من جانب آخر أن الباحث في أشعار حافظ الشيرازي يجد كنايات وإشارات لا يفهمها العامة وإنها بحاجة إلى توضيح كما تعبر أكثر أشعاره عن أفكار الإيرانيين الخاصة، فهذا مما يزيد في مشكلة ترجمتها إلى أية لغة.

www.SID.ir

Archive of SID

«اختلف دارسوا وشُراح في حقيقة شعر حافظ ومقاصده، أكان يقصد من الخمرة ببنت الكرم، ومن الأحباء ببنات شيراز الشهيرات بالجمال أم يريد معانياً روحانية يحار في تأملها الدرويش الصوفي ويغرق في لآلئها فكر الشاعر الحكيم. أو كان حافظ يلاحظ حقاً خمارات المجوس وأديرتهم أم كان يرمز بها إلى ظواهر مادية... إن ذلك الإبهام سبغ على أشعار حافظ صفة الرمز» (اليافي، ١٤٠٩: ١٨).

«وذهب آخرون إلى أن أشعار حافظ يجب ألا تؤخذ على معانيها الظاهرة. إذ إن هذه المعاني غطاء تستتر دونه معان أخرى أبعد منالاً وأقوى حجة وقالوا إنه "صوفي" يسلك مسلك العارفين ويستعمل مصطلحاتهم. ووفقاً لهذا الرأي أخذوا يفسرون "الخمر" بأنها خمر أزلية يديرها الساقي الذي يرشدك إلى طريق الهداية» (الشواربي، ١٩٨٩: ٢٨٥).

وهذا دليل على أن نجيب محفوظ قد طالع أشعار حافظ وأعجب بها وبفلسفتها، علي الرغم من غموض بعض معانيها التي يغلب عليها الطابع الفلسفي والصوفي. وحاول توظيف هذا الشعر بما يحمله من تفاسير متعددة في روايته حتى تضيف لها أبعاداً دلالية وجمالية.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى تأثر "نجيب محفوظ" بأفكار الشاعر الإيراني "حافظ الشيرازي" وغزلياته التي تتسم غالباً بالرمزية وأبعادها الفلسفية، بحيث سعى "نجيب محفوظ" إلى تضمين روايته بمطلع عدد من غزليات "حافظ الشيرازي" من حرف "ألف" إلى "دال"، وكذلك تهدف الدراسة إلى توضيح كيفية توظيف "نجيب محفوظ" لغزليات "حافظ الشيرازي" في "ملحمة الحرافيش" وعلاقة ذلك ببنية الرواية ومضمونها، ولكي تصل الدراسة إلى أهدافها ومعرفة مدى تأثر نجيب محفوظ بأفكار "حافظ الشيرازي" وأشعاره اعتمدت على المنهج المقارن في إطار المدارس الفرنسية للأدب المقارن، التي ترى أن مواطن التأثير والتأثر بين طرفي المقارنة اللذين ينتميان إلى أدبين مختلفين هي الغاية الأساسية للأدب المقارن.

أما بالنسبة لخلفية البحث فنلاحظ أن عدداً من الدراسات تناولت بالدراسة ملحمة الحرافيش وذلك يدل علي جودة الرواية وقيمتها الفنية، ومن ثم فهذا البحث الحالي سبقته دراسات وبحوث علمية ترتكز على خصائص الرواية دون النظر الى تلك الأبيات الفارسية، منها:

- مقالة بعنوان "دلالة السمات شبه اللغوية المصاحبة للأداء الكلامي في عميلة التواصل على بعض من روايات الأستاذ نجيب محفوظ (ملحمة الحرافيش و...)"، عبدالمنعم السيد أحمد جدامي، مجلة أدبيات وزبانها، علوم اللغة، المجلد التاسع، ٢٠٠٦، العدد ٣: ٣١٣-٣٩٢.

www.SID.ir

Archive of SID

يتحدث الكاتب عن السمات الخاصة بالكلام ودلالاتها ودلالات الأصوات غيرالكلامية (مثل الضحك والبكاء والتأوه و...) في ثلاث روايات لنجيب محفوظ خاصة رواية ملحمة الحرافيش.

– مقالة بعنوان "التحليل النفسي للأدب: دراسة نفسية في ملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ"، محمد حسن غانم، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، ٢٠٠٤. هذه الدراسة تتناول بالقراءة والتحليل النفسي للشخصيات المحورية ذات التأثير في ملحمة "الحرافيش" من خلال ما ورد في كل حكاية من حكاياتها وتتناول أيضاً سيكولوجية "الحرافيش" عموماً وكذلك مصائر الشخصيات والتنوعات المختلفة لهذه المصائر.

– ومقالة بعنوان "عن العدالة والمجد وآل الناجى في ملحمة الحرافيش"، جمال فاضل شحات، دار الإبداع للنشر والتوزيع، ١٩٨٤. وهي ترتكز على سمات الشخصيات في الرواية أيضاً.

وينبغي أن نقول: توجد مقالة بعنوان "حافظ الشيرازي والتراث العربي أسرار الإبداع في شاعريته"، عبدالكريم اليافي، مجلة التراث العربي، ١٤٠٩، العدد ٣٥-٣٦: ٧-٢٦. يشير الكاتب فيها إلى الإيحاء والغموض في شعر حافظ الشيرازي، فساعدتنا المقالة في فهم رموز شعرية كامنة في شعر الشاعر.

إن هذه الدراسة ترتكز في أساسها على إبراز مدى تأثر "نجيب محفوظ" بالشاعر "حافظ الشيرازي" وكيف انعكس ذلك في رواية "ملحمة الحرافيش"، وكيف وظف "نجيب محفوظ" غزليات "حافظ الشيرازي" في روايته بحيث بلغ عدد الأبيات التي وظفها "نجيب محفوظ" في روايته ثلاثة عشر بيتاً، أي أن الدراسة تبرز التأثير والتأثر بين "نجيب محفوظ" و"حافظ الشيرازي" من خلال رواية "ملحمة الحرافيش" بناء على منهج المقارن في إطار المدرسة الفرنسية.

منهج البحث

لكي تصل الدراسة إلى أهدافها ونتائجها فقد اعتمدنا على المنهج المقارن في إطار المدرسة الفرنسية للأدب المقارن، وكذلك اعتمدنا على المنهج التحليلي النقدي وهو أقرب المناهج للدراسة حيث أن المنهج النقدي يقوم على أساس تحديد سمات الظاهرة ووصف طبيعتها ونوعية العلاقة بين متغيراتها وأسبابها واتجاهاتها ثم دراستها للوصول إلى نتائجها، ومن ثم يمكن لنا بواسطة كل من المنهجين الوصول إلى ما تهدف إليه الدراسة.

أسئلة البحث

يحاول هذا البحث جاهداً الإجابة على سؤالين أساسيين، السؤال الأول ما مدى تأثر نجيب محفوظ بأفكار "حافظ الشيرازي" وأشعاره؟، والسؤال الثاني كيف استطاع الروائي "نجيب

www.SID.ir

Archive of SID

محفوظ" توظيف أشعار الشاعر "حافظ الشيرازي" التي تحمل فكره في "ملحمة الحرافيش"؟ وللحصول على إجابة هذا السؤال يجب الكشف عن شخصية الروائي" نجيب محفوظ" وملحمته وعن شخصية حافظ الشيرازي وأفكاره ثم الكشف عن طرق توظيف نجيب محفوظ لأشعار حافظ الشيرازي في ملحمته.

نجيب محفوظ

ولد نجيب محفوظ في حي الجمالية في القاهره عام ١٩١١م، ولقد درس أثناء دراسته الجامعية، الفلسفة إلى جانب اهتمامه بالأدب. ولقد أدى المكان دوراً كبيراً في أغلب رواياته، حيث سعى إلى رؤية واقعية تجسّد مشكلات الحارة المصرية وفي الوقت نفسه تعبّر عن هموم وتطلعات الحرافيش (حسن، ١٩٩٧: ١١٢).

يعد نجيب محفوظ من رواد الرواية المصرية والعربية وتعد أعماله اكتمال للروائيين العرب الذين سبقوه مثل هيكل والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، ولقد ساهم تأثير نجيب محفوظ بغيره من الكتاب على تشكيل إبداعه وإثقال موهبته وعن هذا يقول: «قرأت "الحرب والسلام" لتولستوي والقصة القصيرة لتشيخوف وموباسان، أحببت شكسبير و... وأعجبت بجوزيف كونراد وحافظ الشيرازي، فلهذا إنه لم يتأثر بكاتب واحد بل أسهم هؤلاء كلهم في تكوينه الأدبي (عمر، ٢٠٠٨).

حافظ الشيرازي

هو شمس الدين محمد المعروف بحافظ الشيرازي والملقب بلسان الغيب (ولادة ٧٢٦ هـ، وفاة ٧٩١ هـ)، من أعظم شعراء الغزل في الأدب الفارسي، أقبل على دراسة علوم الدين واللغتين العربية والفارسية وحفظ القرآن الكريم فاشتهر بالحافظ.

اشتهر حافظ بديوانه الذي ترجم إلى سبع وعشرين لغة كالعربية والانجليزية والألمانية والفرنسية و... منظوماً أو منثوراً، ويشتمل على حوالي سبعمائة قطعة شعرية أكثرها في الغزل والبقية في ضروب القصيدة والمثنوي والرباعي و... وبلغ الغزل الفارسي حد الكمال في شعره، حيث كان مزيجاً من الفلسفة والكلام والعرفان، ولم يكن حافظ الشيرازي أديباً فارسياً فقط، بل يعد من الشعراء والأدباء العالمية» (برزگر خالقي، ١٣٨٢: ١٠-١٢).

www.SID.ir

Archive of SID

رواية ملحمة الحرافيش

تعد الروايات التي ألفها نجيب محفوظ في الفترة من سنة ١٩٧٧ إلى ١٩٨٨م من أهم المراحل الابداعية وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة التراثية، وسميت كذلك؛ لأن نجيب محفوظ استلهم في هذه المرحلة الموروث الجمالي والسرد العربي القديم وأجواءه التاريخية وتقنياته الفنية والتعبيرية، «يستند هذا النوع من الروايات إلى لغة التخييل والإسقاط التاريخي واللغة البيانية المسكوكة بالمستنسخات النصية كما تعمل على تعتيق اللغة وتأصيل الأسلوب وتضمينه بعبارات تراثية وترهينه بأجواء التراث على الرغم من إيحاءاته المعاصرة» (الحمداوي).

تنتمي رواية "ملحمة الحرافيش" إلى روايات المرحلة التراثية بحيث حوت الرواية الكثير من الرموز التراثية التي عمل نجيب محفوظ علي توظيفها داخل الرواية، بحيث لا تصوّر الملحمة حدثاً في حياة الكاتب، بل حدثاً مأخوذاً من الماضي التاريخي، فالملاحم العربية التي كتبت في العصور الوسطى وما بعدها عادت إلى التاريخ لترصد تذكر الشعب بماضيه المجيد وتحثّه على النهوض ويظهر هذا في رواية ملحمة الحرافيش التي قدمت جانباً من الحياة في مصر إبان العصر المملوكي الذي استحضرته الرواية بالإضافة إلى رصد عادات الناس وتقاليدهم، كالصراع الذي كان يجري بين الأبطال الأشداء لاختيار أقواهم ليكون «فتوة » للحارة، كما أن الرواية تضمنت أناشيداً دينية كانت ترتل في التكايا التي انتشرت في ذلك العصر (رياض وتار، ٢٠٠٢: ٨٧). ويشير نجيب محفوظ إلى المقارنة بين رواية "أولاد حارتنا" ورواية "ملحمة الحرافيش" قائلاً: «فكلاهما نظرة شاملة للإنسانية ولكن أولاد حارتنا تعتمد على الدين بشكل أوضح مما في الحرافيش التي يمكن النظر إليها كأسطورة شعبية وإن كانت بها بعض أصداء للتراث الديني» (عيد، ١٩٨٩: ٣١).

تتميز رواية ملحمة الحرافيش بضخامة متنها وكثرة شخصياتها وتعدد أمكنتها وامتداد زمانها وانقسامها إلى عدد من الأجزاء ويحمل كل جزء عنواناً، أما عن مضمون الرواية فهي تحمل عدداً من القضايا يمكن إجمالها كالتالي:

- المسألة الميتافيزية، فهي تأتي في الرواية عبر مجموعة من الرموز، من أهمها رمز التكية التي يمكن أن يجسّد عالم القيم المطلقة ويتضح الموقع الفريد الذي تحتله التكية في إشكالية الوجود الإنساني بملاحظة المصير الذي تنتهي إليه الشخصيات الأساسية في الرواية (حليفي، ٢٠٠٦: ٤).

www.SID.ir

Archive of SID

– الصراع الطبقي، تنظر رواية "ملحمة الحرافيش" إلى الصراع الطبقي بمنظار عصري، إن هذه الرواية على الرغم من تركيزها على وجود البطل الفردي وجهت اهتمامها إلى الجماهير، مؤكدة أن الفرد لن يستطيع فعل شيء إذا لم تتحرك الجماهير لتدافع عن مصالحها وحقوقها. ولذا حملت الرواية اسم الحرافيش ولم تحمل اسم عاشور الناجي مثلاً. لقد ظلّ الحرافيش على طول السرد الروائي قوة معطلة وارتبط مصيرهم بالبطل الفردي. فإذا كان محباً للعدل سموا بسمّوه وإذا انحرف عن طريق الخير ساءت أوضاعهم وحاق بهم ظلم الأعيان والتجار ولم تتغير صورتهم إلا في نهاية السرد، حيث انطلقوا ليحققوا وجودهم (رياض وتار، ٢٠٠٢: ٩٣).

– العمل الجماعي، لقد رأى الناقد في الحرافيش ترسيخاً لمبدأ إسلامي مهم وهو قيمة العمل الجماعي الذي فطن إليه عاشور الحفيد، قافزاً المسافة الفاصلة بينه وبين جدّه عاشور الناجي في خطوة واحدة، مصححاً المسارات الخاطئة التي سلكها آل الناجي على امتداد أجيالهم وفي غياب عهد جدهم. وذلك في مقابل منهج العمل الفردي الذي تبناه عاشور الناجي وغياب وجود الجماعي المدرك وهو الأمر الذي خرجت منه مآسي آل الناجي عبر سلسلة من التجارب الخاطئة بحثاً عن مصادر القوة والسيطرة (عاشور، ٢٠٠٨: ١٣٥).

تركز هذه الدراسة على كشف مدى توظيف نجيب محفوظ لأشعار حافظ شيرازي داخل الرواية وهي ثلاثة عشر بيتاً، ولقد جاءت في الحكايات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسابعة والعاشرة، ولقد وظف نجيب محفوظ أشعار حافظ الشيرازي داخل روايته لإدراك الصلة بين تلك الأشعار الأعجمية وأهداف نجيب المدرجة في الحكايات وأيضاً نستطيع من خلال تلك العلاقة رؤية انسجام تداخل هذه الأشعار مع نص الرواية الأصلي الذي يدلّ على الفكرة التي طرحها الروائي.

لقد استخدم نجيب محفوظ مطلع غزليات حافظ الشيرازي وهي كالتالي: ٢، ١٢، ٣٨، ٤٥، ٥٤، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٩٦، ١٢٢، ١٨٣، ١٩٦، بحيث رُتّبت هذه الأشعار على أساس الأحرف الأبجدية وإن نجيب محفوظ تضمّن مطلع هذه الغزليات واستخرج هذه الأبيات من حرف الألف (صلاح كار كجا ومن خراب كجا...) إلى حرف الدال (آنان كه خاك را به نظر كيميا كنند...) وأيضاً تبدأ الرواية لحظة طلوع الفجر (في ظلمة الفجر العاشقة...) وتنتهي في السحر (وعقب منتصف الليل ذهب إلى ساحة التكية لينفرد...).

www.SID.ir

Archive of SID

وسوف نستعرض في السطور التالية كيف استطاع نجيب محفوظ توظيف أشعار حافظ الشيرازي لخدمة نصه الروائي، بحيث سيتم تناول كل مطلع غزلي علي حده ويمكن بيان ذلك كالتالي:

نص حكاية ملحمة الحرافيش: غادر "عاشور الناجي" البيت والمغيب يهبط على القبور والخلاء، مضى في الممرّ حتى بلغ ساحة التكية، القبو بدا لعينيه مظلماً وترامت أشباح أشجار التوت من فوق الأسوار، تصاعدت الأناشيد بغموضها فصمّم على أن يطرح الهمّ جانباً وقال لنفسه: لا تحزن يا عاشور، فلك في الدنيا إخوة ليس لعدّهم حصر... ومضى تلاحقه الأناشيد (محفوظ، ١٩٩٣: ٧١١):

اي فروغ ماه حسن از روي رخشان شما آبروي خوبي از چاه زنخدان شما[1]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ١٢: ٤٦)

شعر عاشور بعد موت أبيه وذهاب والدته إلى قريتها بأنه وحيد في الدنيا بلا ناس وليس باستطاعته نسيان ذكر أبيه الذي كان يحبه ويعبده، ولكن صوتاً صاعداً من صميم قلبه قال له: عندما يحلّ الخلاء بالأرض، فإنها تمتلئ بدفقات الرحمن ذي الجلال، فلهذا ترك درويش (عمه) فصمم على طرح الهم جانباً ووعد نفسه بالرجاء. إنه كان على هذه الحقيقة التي سيوجد كثير من الذين تخفق قلوبهم الطيبة له وإنهم يعطون المأوى له، الله سيساعده وهو سيعثر على أشخاص طيبين غير أبيه وأمه في أمكنة أخرى وإنهم يمدّون يد المساعدة إليه، من الرغم أنه كان يدري أن الحياة حافلة بالمكر والرذائل لا حصر لها، فلهذا اتخذ التكية ملاذاً له والدراويش أصدقاء لنفسه، من الممكن أن نجيب محفوظ استخرج معنى مساعدة الآخرين إلى بطل القصة من هذا البيت.

الحرافيش: رأى عاشور رجلاً عرفه به بقية ضوء المغيب وتمتم: درويش زيدان! درويش سأله بجرأة: هل أجد عندك مأوى حتى أقف على قدميّ؟ بادره عاشور قائلاً: لا مكان في حجرتي لغريب... فقال درويش: لولا ذكرى مولاي ما مددت لك يدي! لم يضنّ درويش عليه بالنقود وهو من الضيق في غاية... مضى درويش نحو القبو صامتاً على حين تهادى من التكية صوت عذب ينشد (محفوظ، ١٩٩٣: ٧١٦):

---

١. حافظ: شبّه الشاعر معشوقه بالشمس ويقول: أنت كالشمس ضياءً وضوء القمر من وجهك المتلألئ يسطع وتأتي الحسنات كلها من فضلك.

www.SID.ir

Archive of SID

زگريه مردم چشمم نشسته در خونست[1] (معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٥٤: ٨٨)

حافظ: من تلك اللحظة التي غاب وجهك عني، امتلأت عيناي دماً من شدة البكاء عليك. فهذا الغزل يشير إلى شدة الحزن والبكاء على رحيل من أحبه وقيل أنشده الشاعر في رثاء ابنه (زيبائي، ١٣٦٧: ٣٤٢).

يرى عاشور عمه درويش زيدان بعد غيابه طوال ذلك العمر صدفة ويفهم أنه كان في السجن والآن يطلب المساعدة منه. حينما خرج اسم أبيه (الشيخ عفرة زيدان) من فم درويش، يتأثر عاشور ويعطيه النقود.

هنا يتذكر عاشور أباه ويحزن له ويشير لدرويش أنه لم ينقطع عن زيارة قبره ودائماً يتذكر اسم أبيه. وعندما يسمع عن درويش جملة "لولا ذكرى مولاي، ما طلبت منك المساعدة" صمم على مساعدته. على رأيي: نجيب محفوظ يشير إلى هذا البيت ليعرض ميزان شدة حزن بطل القصة على موت أبيه وذكر أبيه الميت كان سبباً لمساعدته درويش زيدان.

الحرافيش: هاجر عاشور في الفجر. تحركت به الكارو نحو القبو كما تفعل في مواسم القرافة. تربعت فوق سطحها المترجرج "فلة" محتضنة "شمس الدين"، أمامها بقجة مكتضة، وراء ها أجولة من الفول السوداني وبلاليص من الليمون والزيتون المخلل وزكائب من العيش المقدّد. ولما خلصت العربة إلى الساحة، استقبلتها تراتيل آخر الليل وهي تشدو (محفوظ، ١٩٩٣: ٧٢٦):

جز آستان توام در جهان پناهي نيست سر مرا به جز اين در، حواله گاهي نيست[2]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٧٦: ١١٠)

عندما عزم عاشور الناجي على الرحيل إلى الخلاء والهرب من الموت، اعترضته أسرته وقالوا: ألا يوجد الموت في الخلاء؟ فيقول عاشور: علينا أن نبذل ما في وسعنا وأن نقدّم الدليل للمولى على تعلّقنا ببركته وحتى حين الوصول إلى الخلاء عندما تقول زوجته متشكية: لاحي موجود، هو يقول: الله موجود.

---

١. كأن الشاعر يبحث عن مفقود (معشوقه) في حياته، فلهذا يمدحه ويذكر حسناته ويقول لنفسه: لا يوجد أفضل وأجمل من معشوقه ويجب أن يترك الآخرين.

٢. حافظ: يخاطب الشاعر المعشوق الحقيقي ـ وهو الله ـ ويقول: لا ملجأ لي في العالم إلا بابك وأن العاشق الصادق لا يجد ملجأ في العالم كله إلا باب المعشوق.

www.SID.ir

Archive of SID

فربما كان قصد نجيب محفوظ من مجيء بهذا البيت، الرجاء والتوكل على الله. عندما ييأس عاشور من أهل الحارة ويرى أنهم لا يرافقونه في الرحلة والهرب من الموت، لا يقنط من الله ولا يجعل للشك طريقاً إلى قلبه، بل هو يؤمن بأنه لا يجد ملجأ إلا الله ويبحث عن مكان ليأواه. فلهذا توكل على الله وخاطبه بأن عتبته ملجأ له.

الحرافيش:

صلاح كار كجا و من خراب كجا　　ببين تفاوت ره از كجاست تا به كجا[1]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٢: ٣٦)

شمس الدين بعد فوزه في معركة مع فتوة "العطوف" سرعان ما انفصل عن الجمع، فوجد نفسه وحيداً ووردت كلمة تقول إن كل شيء هباء حتى الفوز. وتقول أيضاً إن الهتاف كثير ولكن ما أكثر الآذان التي تتعاقب على سماعه... يستوي لديه أن تحمله ساقاه أو تخذلانه. ويسارع شمس الدين المجهول في وحدته. إنه يصده عن السير، يرفع أديم الأرض حيال قدمه، يسرق فوزه العظيم ببسمة ساخرة (محفوظ، ١٩٩٣: ٧٥٦، بالاختصار).

رغم ما عانى شمس الدين من انحرافات شخصية، فإنه حافظ على نقاء فتونته للحارة ورعي الحرافيش بالرحمة والعدل والحب وتناسى الناس أخطاءه وأصبح اسم الناجي مرادفاً عندهم للخير والبركة. ولكن بعد موت زوجته "عجمية" شعر بأن الموت قريب منه والحزن في مثل سنه لا يعني شيئاً وسيجيء يوم لا يبقى له فيه من الفتونة إلا اسم وذكرى. ولكن حينما يتذكر ماضيه يرى أنه مظلم والآن أصبح طاعناً في السن ويشعر بالوحدة وليس بإمكانه استعادة ذلك الزمن ويأخذه تأنيب الضمير. على رأيي ان نجيب محفوظ جاء بهذا البيت من أغاني حافظ الشيرازي ليعرض تذكر بطل القصة أعماله السيئة وهو ليس بإمكانه أن يتدارك تلك الأخطاء الماضية. مع أنّه فاز في الحرب وقدّم فتوحات ومساعدات كثيرة للناس ولكنه كان نادماً على ماضيه.

الحرافيش: في تلك الليلة سهر "خضر" في الساحة أمام التكية. دفن قلقه ومخاوفه في الظلمة المباركة. رنا بإجلال إلى شيخ السور العتيق. تذكر بوجد الثاوين في القبور والضائعين

١. حافظ يقول: أنا سكران، فأصبحت غريباً عن العقل وصحة العمل. أنظر ما أبعد الطريق بين حسن السمعة وسوء السمعة، فانظر تفاوت الطريق من أين إلى أين؟ إن الشاعر يذمّ نفسه في هذا البيت ويحسبه من الحزم (زيبائي، ١٣٦٧: ١٨).

www.SID.ir

Archive of SID

في المجهول. العواطف المشبوبة التي لم تنهل في رحيق الحياة. الآمال التي تلاشت في الأبدية وتساءل: ماذا يخبيء الغد؟... لم اختصّ عاشور وحده بالرؤيا الهادية؟ وانتبه إلى الأنغام وهي تصعد مثل الهداهد هاتفةً (محفوظ، ١٩٩٣: ٧٨٢):

آنان كه خاك را به نظر كيميا كنند آيا بود كه گوشه چشمي به ما كنند[١]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ١٩٦: ٢٣٠)

حزن "خضر سليمان الناجي" حزناً عميقاً حينما يفهم أن "سماحة ابن أخيه" ينضم إلى عصابة "الفللي" ويصبح رجلاً من رجاله. إنه يذهب في هذه الأحوال السيئة إلى ساحة التكية ويتذكر في خياله المقيمين في القبور والذين ماتوا ولم يبق لهم أي أثر. يقول لنفسه: إنهم ماتوا وآمالهم ماتت معهم ولكن جدي "عاشور" يرجع يوماً وينتصر على الأعداء. يتحسر على عاشور جده؛ لأنه اختص وحده بالرؤيا الهادي ويرجو أن يكون ذا قدرة عظيمة كقدرته للتغليب على الصعوبات. يحزن على ماضيهم بسبب الانحرافات التي راجت بين أحفاد الناجي ويتمنى أيام عاشور ويحب أن يهتمّ به أشخاص كبيرة مثله.

الحرافيش: ها هو يلبد في ظلمة الممر بين السور العتيق وسور التكية. هنا منذ أجيال ألقي بعاشور بلا اسم ولا شكل في لفافة. هنا انهمرت فوقه الأناشيد بلاوعي منه. هنا امتدت إليه يد الرحمة تنتشله من الضياع، ها هي الأناشيد تتسلق أمواج الظلام... (محفوظ، ١٩٩٣: ٧٨٧):

در اين زمانه رفيقي كه خالي از خلل است صراحي مي ناب و سفينه غزلست[٢]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٤٥: ٧٩)

الشاعر هنا يشير إلى وحدته وصديقه الوحيد أي: الخمر الخالص وغزلياته، لأنهما وفيان ولا يتركانه في أي ظروف.

---

١. حافظ: هؤلاء الذين يبدّلون التراب (الشيء الرخيص) بنظراتهم إلى الذهب الخالص (الشيء الغالي النفيس) ويستطيعون تبديل أخلاق رذيلة إلى أخلاق حسنة وبإمكانهم إيصال الأجساد القذرة إلي رتبة المعنويات، هل يمكن أن يهتموا بنا وينظروا إلينا ويرفعونا إلى تلك الرتبة العالية؟ هل يمكنهم أن ينظرون إلينا نظرة تحوّل نفوسنا (محفوظ، ١٩٩٣: ٧٩٠). كأن الشاعر يتمنى أن يكون مكان العظماء. إنه يرى نفسه ضعيفاً لا قدرة له لإدارة الأمور فيرجو أن يعينه أحد ذو شأن عال.

٢. حافظ: هذا الغزل هو شكوى من الدهر ومن الأصدقاء، يقول: الصديق الحميم والمخلص في هذا العالم ليس إلاّ كأس الخمر وغزليات الشاعر وقيل في هذه المعاني: أن القصد من الخمر هو القلب الصادق المليء برحمة الرب والسفينة تعني كتاب الحقائق (الفرقان) (محفوظ، ١٩٩٣: ٢٨٨).

www.SID.ir

Archive of SID

بعد أن انضمّ "سماحة" إلى عصابة الفللي ـ فتوة الحارة ـ عزم على الزواج من "مهلبية". حينما ذهب لدعوة المعلم الفللي إلى حفل زفافه، أدرك أن الفللي يعزم على طلب يد مهلبية. طالما حذّره "خضر" منه، قال له هذه المرة: إحذر أن تفكر في أي نوع من المقاومة أمامه. كان على سماحة ألا يثق إلى الفللي. هو "الفللي" كان صديقه ولكن الآن أصبح عدوّه. من الممكن أن نجيب محفوظ استخرج معنى عدم الوفاء والخيانة للأصدقاء والقرباء من هذا البيت وأشار إلى أن الدنيا وأمورها لإثبات لها. الفللي ولو كان صديق سماحة ولكن طعنه من الظهر ومع أنّ خضر حذّره من الاقتراب إليه ولكن سماحة واصل صداقته معه وأخيراً أفقد مهلبية واضطرّ بالهرب.

الحرافيش: في طريقه إلى الاختفاء وقف في الساحة أمام التكية. ها هو يمتلئ برائحة الحارة وأنفاسها. ولكن أين النشوة؟ كم حلم بهذه الوقفة كمنطلق لدفقة جديدة من الحياة. تؤدب الأوغاد وتبعث روح العهد. ما هي الليلة إلا بدء رحلة طويلة جديدة في دنيا العذاب والمطاردة، سيرجع إذا رجع شيخاً بلا حول... ومضى نحو الممرّ والأصوات تترنم في جلال الليل (محفوظ، ١٩٩٣: ٨٠٢):

درد مـا را نيسـت درمـان الغيـاث　　هجـر مـا را نيسـت پايـان الغيـاث[1]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٩٦: ١٣٠)

بعد مقتل "مهلبية" شهدت عشرات بأنه ـ سماحة ـ استدرجها بحيلة إلى الساحة، ثمّ قتلها انتقاماً منها لإيثارها الفللي عليه. فهو اضطر بالهرب إلى "بولاق". سرى إلى بولاق خبر عجيب بأنه ثمة صداقة تتوطد أركانها بين فتوة بولاق والفللي. حينئذ فرّ سماحة مرة أخرى. في هذه الفترة سلّمت زوجته "محاسن" أبناءه إلى أهل سماحة وحصلت على الطلاق. رجع سماحة بعد مرّ أعوام ولكن فاجأه نبأ زواج محاسن مع "عبدالباسط " فاشتبك معه وكان لا مفر له إلا الملاذ إلى أسرته.

في اعتقادي، إن نجيب محفوظ تضمنّ هذا البيت من الغزل ليرسّم ميزان ألم بطل القصة وعذابه وفراقه من الحارة وأسرته والنكبات التي حلّت بأسرة الناجي. يتحدث

١. حافظ: هذا الشعر هو غزل غرامي ويخاطب معشوقه ويقول: هذا الفراق لاينتهي وهمومنا لا نهاية لها ولانستطيع الوصول اليه فأغثنا يارب. فقصد الشاعر هو الشكوي من الآلام والوقائع المرة التي ألمت به (محفوظ، ١٩٩٣: ٦٨٩).

www.SID.ir

Archive of SID

سماحة مع نفسه حين الرجوع عن تحسين الأوضاع ويرجو أن يهلك الفتوات ويواصل طريق عاشور الناجي ولكن تفاجأه حوادث غير عادية. فلهذا يشتكي من المصائب الموجودة في طريقه. هو اضطر بالفرار مع أن تلك المدة لم تنقض وهو مازال مطارداً؛ لأنه ارتكب قتل وغدٍ (عبدالباسط) وكأن همومه لا تريد أن تمح وتذهب.

الحرافيش: حمل الطفل في لفافته ومضى به ليلاً إلى ساحة التكية. استقبل فيض الأناشيد في أوله. دعا الله أن يجعل من الصغير غصناً في دوحة البطولة والخير لتتجسد فيه الأحلام المقدّسة لا الأهواء الجامحة الشرّيرة. وسرح فكره إلى الممرّ الضيق حيث تُرك عاشور في مثل سن ابنه. وكما تعبر سحابة وجه القمر فتحجب نوره، اقتحمه خاطر مظلم. تذكر ما يتقوّل به الأعداء من عاشور وأصله.غشيته كآبة غضة. لاذ بالأناشيد ليغتسل من عرقها الحامض. وغمغم "اللهمّ هبني القوة". انغمس في الأنغام تماماً وهي تردّد (محفوظ، ١٩٩٣: ٨١١):

نقـدها را بـود آيـا كـه عيـاري گيرنـد تا همـه صـومعه داران پـي كـاري گيرنـد[1]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ١٨٥: ٢١٩)

حبلت "عزيزة" زوجة "قرة" وأسموه "عزيز". مضى "قرة" به ليلاً إلى ساحة التكية وهناك تذكر الأقاويل التي قد شاعت حول عاشور وأصله ونسبه. فانتابه الحزن، لأن الأعداء كانوا يتكلمون عنه دون أن يعلموا شيئاً من ماضيه. كان جده عاشور عندهم نموذجاً لقيط ابن حرام.

ولكن على العكس كان عاشور يردّ عن الحرافيش ظلم الظالمين ويسلك سلوكاً مناقضاً لما هو شائع في المجتمع. وحينما قدّم الزواج من "فلة" كان على بغية إنقاذها مما هي فيه من ضلال، على الرغم من أنه كان باستطاعته أن يفعل كالآخرين. ولكن على عكس عاشور، ابتعد بعض أسرة آل الناجي من السجايا الحميدة. ربما استنبط نجيب محفوظ معنى اختبار أقوال الناس من هذا البيت. إذا اختبر معيار صدقهم وكذبهم، لاشك أنه يثير الفضيحة ولابدّ أن يتركوا تلك الأوهام. ولكن ليس في إمكان أحد أن يتكلم بالحق؛ لأن الفتوات أنفسهم يثيرون الشائعات وما أحد يعترض سبيلهم. فلهذا "قرة" يدعو الله أن يصبح صغيره بطلاً من بطولات آل الناجي كعاشور ويكون له الأحلام المقدسة لا الميول الشريرة.

---

١. حافظ: ياليتهم يقدرون كل نقد ويبينون عياره؛ لأنه حينما يختبر معيار الصدق والكذب لدى أهل التصوف، كثير منهم يتركون البطالة ويبحثون عن عمل بالجدّ لصالح دنياهم؛ لأن عند الاختبار يتبين كفرهم وعدم خلوصهم. الشاعر يريد أن ينبه الناس كي لا يصدقون كل كلام يسمعونه ولا يصغون إلى الباطل وألا يتكلموا إلا بالحق (خرمشاهي، ١٣٦٦: ٦٨٥).

www.SID.ir

Archive of SID

الحرافيش: سماحة سهر الليل في ساحة التكية. ودعا بقوة الخيال صور التكية والتوت والسور العتيق. وراح يملأ قلبه بالأنغام في ارتياح وغبطة. وبسط راحتيه وقال:

حمداً لله الذي شاءت إرادته أن أُدفن إلى جوار شمس الدين. حمداً لله الذي أذنت رحمته للعدل أن يظلّ في حارتنا، حمداً لله الذي أورث ابني خير إرث للإنسان الخير والقوة. وجرى شكره في ظلّ نشيد يترنم (محفوظ، ١٩٩٣: ٨٢٢):

هر آنکه جانب اهل خدا نگه دارد　　خداش در همه حال از بلا نگه دارد[١]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ١٢٣: ١٥٧)

فجأة ذات صباح، جاء الحارة رجل غريب وانكشف أنه المعلم "سماحة بكر الناجي". وحينما سمع وحيد ابنه الصغير وثب إلى الفتونة، تهلل وجهه وقال: إذن قد رجع عهد عاشور. فربما نجيب محفوظ يريد أن يشير إلى براءة سماحة وعدم اقترافه اثماً. سماحة حينما انفرد بنفسه حمد الله؛ لأنه رجع بالسلامة بعد فترة طويلة وما أصاب احداً بالضرر والآن كل شيء هادٍ وعلى ما يرام. ومن الحظ أنه يستطيع أن يدفن هنا إلى جوار شمس الدين. وابنه وحيد قد رفع اسم آل الناجي.

فكانت هذه العوامل سبباً لمساعدة الله إياه والحال إنه يواصل حياته في جو مليء بالهدوء ودون قلق الخاطر.

الحرافيش: "في الليل وقف جلال قبالة التكية. مرّت به الأنغام. باستهانة طرق الباب. لم يتوقع رداً عرف لم لا يردّون. إنهم الموت الخالد الذي يتعالى عن الردّ. تساءل: أليس للجار حقّ؟ وأنصت للغناء فأنساب الصوت في عذوبة (محفوظ، ١٩٩٣: ٨٥٦):

صبحدم مرغ چمن با گل نوخاسته گفت　　ناز کم کن که در این باغ بسي چون تو شکفت[٢]

(معصومي، ١٣٨٣، رقم البيت ٨١: ١١٥)

روي أن حافظ خاطب ملكاً شاباً في شيراز وقال له: جاء أشخاص كثيرين مثلك إلى أرض فارس وحكموا فيها ثم ذهبوا، فاترك أنت الدلال ولا تغتر بنفسك (ثروتيان، ١٣٨٠: ٩٦٤).

---

١. حافظ: من يحمي المؤمنين ويحفظهم تحت رعايته، ويف بما يقول، يحفظه الله في كل الأحوال ويرعاه. الشاعر يشجع الوفاء والإخلاص في الأعمال كي يساعده الله ويحفظه من المصائب (زيبائي، ١٣٧٤: ٨٤٨).

٢. حافظ: من المعروف أن العندليب يعشق الوردة في كل لحظة فهذا الطائر يخاطب وردة نامية زاهرة صباحا ويقول لها: لا تدللي ولا تغنجي، أنت لست وحيدة في هذه الحديقة وما أكثر ما تفتحت ورود كثيرة مثلك (محفوظ، ١٩٩٣: ٥٣١).

www.SID.ir

Archive of SID

فهذا البيت يشير إلى هذه الحقيقة التي توحي نداء إلى قلب "جلال" بأنه ليس منفرداً ويوجد معه آخرون في الدنيا. شعر جلال بعد موت زوجته "قمر" بأن كائناً خرافياً في جسده. إنه يملك حواساً جديدة ويرى عالماً غريباً. هو يقول لنفسه: أيوجد معه آخرون في الدنيا؟ من قال إذن إن الدنيا خالية من الحقيقة؟ خالية من الحزن والأسى؟ وهو عزم على التغليب على الموت والحصول على الخلود.

ولكن باعتقادي ما استخرج محفوظ معنى رمزياً من هذا البيت ومن الممكن أنه ما فهم قول الشاعر بل نظر إلى ظاهر المعنى.

الحرافيش: "تلظى ضياء" بالغضب ولكن شرره لم يجاوز جدران البدروم. أما عاشور فغاص في الحزن حتى قمة هامته. ولم يطق البقاء في البدروم مع أحزانه. فخرج إلى الظلام، مسوقاً بقوة خفية نحو ساحة التكية، نحو خلود جده عاشور، جلس القرفصاء دافناً رأسه بين ركبتيه في جو جامد لا يتنفس، تسبح فيه الأناشيد وحدها. أصغى طويلاً وغمغمم:

ما أشدّ ألمي يا جدي!

وناجته الأناشيد بلغتها الغامضة (محفوظ، ١٩٩٣: ٩٠١):

بي مهر رخت روز مرا نور نماندست وز عمر مرا جز شب ديجور نماندست[١]

(معصومي، ١٣٨٣: رقم البيت ٣٨: ٧٢)

بعد أن لم يعثر لـ"فائز" (الابن الأكبر لحليمة البركة) على أثر، صاح المعلم "موسى الأعور": هو سرق الكارو واختفى. شيخ الزاوية وشيخ الحارة أفتيا بأن على ست حليمة وابنيها (ضياء وعاشور) أن يؤدوا ثمن العربة والحمار. لهذا كان لا مفر لحليمة أن تقدم كافة الخدمات لدار الفتوة "حسونة" بلا مقابل وبلا كلمة شكر. قد حدث يوماً أن حسونة لعنها وصفعها. حين استماع الخبر الابنان أصبحا غضباناً. عاشور لم يستطع البقاء في الدار وسار نحو ساحة التكية. من الممكن أن نجيب محفوظ قد أدرك معنى الهم والحزن من هذا البيت. وليس قصده موت وفراق عاشور بل يريد أن يعرض غضب عاشور الحفيد من أحزان أمه. عاشور لم يطق تحمل الظروف بسبب تلك الحوادث التي واجهها ولهذا خاطب جده عاشور وتكلم عن أنين وحرقة قلبه معه.

---

١. يبدو أن حافظ الشيرازي أنشد هذا الغزل في رثاء ميت عزيز. فيقول: بغير شمس وجهك... قد صارت أيامي دامسة حالكة وما بقي من حياتي إلا ليل مظلم (محفوظ، ١٩٩٣: ١٦٠).

www.SID.ir

Archive of SID

الحرافيش: وفي الليل دأب على التسلل إلى ساحة التكية. يقتعد مكان الناجي ويصغي إلى رقصات الأناشيد. ألا يبالي رجال الله بما يقع لخلق الله؟ متى إذن يفتحون الباب أو يهدمون الأسوار؟ يريد أن يسألهم لماذا ارتكب فائز جرائمه. حتى متى تشقى حارتنا وتمتهن؟ لم ينعم الأنانيون والمجرمون؟ لم يجهض الطيبون والمحبون؟ لم يغطّ في النوم الحرافيش؟ هذا ويمتلئ بالأناشيد... (محفوظ، ١٩٩٣: ٩١٢):

ديدي كه يار جز سر جور و ستم نداشت بشكست عهد وز غم ما هيچ غم نداشت[١]

(معصومي، ١٣٨٣: رقم البيت ٧٨: ١١٢)

بعد انتحار "فائز" رجعت حليمة مع أبناء ها إلى الحارة. ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا مأوى لهم. اقترح عاشور أن يبقوا في المدفتر غير بعيدين من حارتهم حتى يتاح لهم الرجوع ولكن أكد ضياء بأنه سيذهب ولو اضطرر إلى الانفصال عنهما... ودّع ضياء أمه وأخاه وذهب.

ربما نجيب محفوظ تضمن هذا البيت ليصوّر ألم عاشور وشكواه من الدهر. عاشور يسأل نفسه ما السبب في اضطرار فائز إلى اقتراف هذه الجريمة؟ لماذا يغفل الحرافيش ولا يبالون إلى آلامهم. لماذا يظلمهم الفتوات ولا يواسونهم في أحزانهم؟ ومئات ومئات سؤال يكون غامضاً عنده.

الحرافيش: عاشور عاد إلى دنيا النجوم والأناشيد والليل والسور العتيق. قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته في أمواج الظلام الجليل. وانتفض ناهضاً ثملاً بالإلهام والقدرة. فقال له قلبه لا تجزع. فقد ينتفح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة...

وهتفت الحناجر شادية (محفوظ،١٩٩٣: ٩١٩):

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دادند واندر آن ظلمت شب آب حياتم دادند[٢]

(معصومي، ١٣٨٣: رقم البيت ١٨٣: ٢١٧)

«قد روي أن حافظ الشيرازي كان يتعشق فتاة تسمى "شاخه نبات" كانت تعرض عنه دائما. فدفعه ذلك الحب الفاشل إلى أن يختار العزلة والاعتكاف، فاختار ضريحاً في شمالي مدينة شيراز يعرف بضريح "بابا كوهي" .فلزمه أربعين يوماً يتقرب فيها إلى الله بالدعا والتضرع.

---

١. حافظ يخاطب قلبه ويقول: أرأيت أن المعشوق نساني وما أراد إلا أن يظلمني فتكث العهد ولم يهتمّ بهمومي (محفوظ، ١٩٩٣: ٤٨٥).

٢. هذه الفتحة الروحية في كلام حافظ تحدث دائماً في خلوته عند الفجر. الشاعر يقول: أنقذوني من الهموم عند طلوع الفجر ووهبوني المعيشة المعنوية وأنا ارتويت ماء الحياة والخلود على أيديهم (محفوظ، ١٩٩٣: ٦٨٩).

www.SID.ir

Archive of SID

فلما كاد يكمل أيام عزلته زاره هنالك ـ فيما يقولون ـ الإمام علي عليه السلام وأطعمه طعاماً سماوياً ولقّنه غزله المعروف:

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دادند...

وخبّره أنه سيكون شاعراً ذا شأن وأنه سيكون مؤيداً بتأييدات عن عالم الغيب (الشواربي، ۱۹۸۹: ۱٦۹).

ذات يوم عجيب انحدر من تحت القبو رجلٌ. هو ماكان أحداً إلا... عاشور الحفيد. نشبت معركة غاية في الشدة والقسوة بين عاشور وفتوة"حسونة السبع" وأخيراً رجعت الفتونة إلى آل الناجي، وتشكل عصابة لأول مرة أكثرية أهل الحارة وعرف الحرافيش سرّ الغلبة على الظلم والفتوات. على رأيي استخرج نجيب محفوظ معنى الحرية والانتصار من هذا البيت، إنّ عاشور الحفيد حقّق ذلك الحلم الذي جذب به الحرافيش إلى ساحته وحوّلهم به من صعاليك ومتسوّلين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة ووصل إلى رؤيته الذهبية وهو وثوبه إلى الفتونة واستحواذ على الطمأنينة والأهم من ذلك هو فهم تلك الأناشيد المبهمة وكأنما أدرك لِم ترنموا طويلاً بالأعجمية.

النتائج

رواية "ملحمة الحرافيش" تسجل انتصار ثورة الحرافيش بمساعدة القوى الغيبية وهي تنظر إلى الصراع الطبقي. وإنها وجهت اهتمامها إلى الجماهير ولهذا حملت هذه الرواية اسم الحرافيش. تتصاعد أناشيد مبهمة من ساحة التكية بلغة غير لغة الكاتب الأصلية وكأن الراوي يريد أن يختفي أسرارها خلف تلك الأنغام. استخدم نجيب محفوظ في معظم رواياته وقصصه اللغة الرمزية معتمداً على دراسته الفلسفية وبواسطة هذه الرمزية استطاع أن يظهر فكره الماركسي، فاتبع طريق الإيحاء واهتم بالصور المتافيزيقية ودخلت أعماله الغموض. فلذلك هذه القصص الرمزية تستهدف البحث عن القوة المجهولة (اللّه) لتمنح الحياة وغاية ودراسة أسرار الكون ولكن يرافق هذه الهدفين القلق والاضطراب والترديد.

وهذه الأبيات هي تعبير عن لحظات الوجد الصوفي في الرواية. فمن الطريف أن كاتباً شهيراً كنجيب محفوظ يتضمن شعراً مكان النثر في كتابته ويطرح ما في فكرته بلغة أخرى ولهذا يمثل الجانب العرفاني من الشعر الفارسي. إنه يريد أن يتكلم ما في فكرته بالرمز

www.SID.ir

Archive of SID

ويجعل تلك الأصوات غامضة على القارئ أو يريد خلق إبداع أدبي. لقد وظف أشعار حافظ الشيرازي داخل روايته لإدراك الصلة بين تلك الأشعار الأعجمية وأهداف نجيب المدرجة في الحكايات وأيضاً نستطيع من خلال تلك العلاقة رؤية انسجام تداخل هذه الأشعار مع نص الرواية الأصلي الذي يدلّ على الفكرة التي طرحها الروائي. لقد طالع "نجيب محفوظ أشعار حافظ وأعجب بها وبفلسفتها، على الرغم من غموض بعض معانيها التي يغلب عليها الطابع الفلسفي والصوفي. وحاول توظيف هذا الشعر بما يحمله من تفاسير متعددة في روايته حتى تضيف لها أبعاداً دلالية وجمالية.

ولكن أي شخص يفسّر أشعار حافظ على أساس نيته واعتقاده. لهذا نحن حاولنا أيضاً أن نجد شيئاً من العلاقة بين فكرة الشاعر والكاتب ويبدو أن الروائي الكبير "نجيب محفوظ" أدرك اللسان الشعري لحافظ الشيرازي وباستخدام هذه الأبيات صرّح بما في ذاكرته ولكنه لم يستخرج معناً رمزياً من بعض الأبيات أحياناً، على الأرجح أنه لم يفهم قول الشاعر بل أدرك ظاهر المعنى.

لاحظنا أن "نجيب محفوظ" قد تأثر بشكل كبير بأفكار "حافظ الشيرازي" واستطاع ببراعة في توظيف بعض أبيات من غزليات التي تتوافق مع مضمون روايته والتي تحمل روح التصوف الذي يغلب علي مضمون الرواية، ولقد وظف "نجيب محفوظ" الأبيات باللغة الفارسية بدون ترجمة حتى تكون غامضة على القارئ العربي وبذلك تساعد هذه الأبيات المبهمة في لحظات التفكير والتأمّل الذي يتناسب مع مضمون الرواية، كما أن "نجيب محفوظ" لم ينجح في بعض تناصاته لأبيات "حافظ الشيرازي" من إدراك المعنى الباطن للنص واكتفى بالمعنى الظاهر للأبيات.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. أبو أحمد، حامد (٢٠٠٩). *الواقعية السحرية في الرواية العربية*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٢. أبوعوف، عبدالرحمن (٢٠٠٩). *فصول في النقد والأدب*. ط٤، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣. الجيار، مدحت (٢٠٠٨). *السرد الروائي العربي، قراءة في نصوص دالة*. ط٤، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤. السيد، شفيع (٢٠٠٦). *فصول من الأدب المقارن*. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

٥. الشواربي، ابراهيم (١٩٨٩). *حافظ الشيرازي، شاعر الغناء والغزل في إيران*. بيروت: دار الروضة.

٦. اليافي، عبدالكريم (١٤٠٩). *حافظ الشيرازي والتراث العربي أسرار الإبداع في شاعريته*. مجلة التراث العربي، العدد ٣٥-٣٦، صص٧-٢٦.

٧. برزگر خالقي، محمد رضا (١٣٨٢). *شاخ نبات حافظ:* شرح غزلها همراه با مقدمه. طهران: زوار.

٨. ثروتيان، بهروز (١٣٨٠). *شرح غزليات حافظ*. دفتر اول، طهران: پويندگان دانشگاه.

٩. حسن، رجب (١٩٩٧). *نجيب محفوظ يقول*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠. حليفي، شعيب (٢٠٠٦). *المسألة الميتافيزيقية في الحرافيش*. مجلة فصول، العدد ٦٢.

١١. الحمداوي، جميل (٢٠٠٦). *العبث الوجودي في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ*. الموقع: www.aklaam.net.

١٢. ختمي لاهوري، أبوالحسن عبدالرحمن (١٣٧٤). *شرح عرفاني غزلهاي حافظ*. تصحيح وتعليق بهاء الدين خرمشاهي، جلد ١ و٢، طهران: ديبا.

١٣. خرمشاهي، بهاء الدين (١٣٦٦). *حافظ نامه، شرح الفاظ، أعلام، مفاهيم كليدي وابيات دشوار حافظ*. طهران: سروش.

١٤. رياض وتار، محمد (٢٠٠٢). *توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

١٥. زيبائي، محمد علي (١٣٦٧). *شرح صد غزل از حافظ. طهران:* خوشه.

١٦. شكري، غالي (١٩٩١). *نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل*. بيروت: دار الفارابي.

www.SID.ir

Archive of SID

١٧. عاشور، خالد (٢٠٠٨). *البحث عن زعبلاوي*: الحركة النقدية حول نجيب محفوظ. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨. عمر، جمال (٢٠٠٨). *دلالة المكان في أدب نجيب محفوظ*. الموقع: www.social.subject-line.com.

١٩. عيد رجاء (١٩٨٩). *قراءة في أدب نجيب محفوظ*. الاسكندرية: منشأة المعارف.

٢٠. غنيمي هلال، محمد (١٩٦٢). *الأدب المقارن*. ط ٣، بيروت: دار الثقافة.

٢١. محفوظ، نجيب (١٩٩٣). *المؤلفات الكاملة*. ج ٤، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

٢٢. معصومي، رضا (١٣٨٣). *ديوان خواجه شمس الدين محمد حافظ شيرازي به انضمام فالنامه*. نسخة قاسم غني؛ محمد قزويني، انتشارات گلي.

٢٣. نقاش، رجاء (١٩٩٥). *في حب نجيب محفوظ*. القاهرة؛ بيروت: دار الشروق.

www.SID.ir